مقدمة

الاتجاهات المحافظة والراديكالية

فى علم الاجتماع

واضح أنه من الصعب تفسير الوجود المتداخل للأفكار الراديكالية والمحافظة فى الفكر السوسيولوجى ، وكذلك العلاقات المتبادلة بينهما والمتغيرة تاريخيا · اذ يعتبر المعنى المتنوع وغير الواضح لكلمتى (راديكالى Radical) ومحافظ Conservative احد مصادر الصعوبة · وربما كان هناك بعض الكتاب الذين مازالوا يرغبون فى مقابلة علم الاجتماع البرجوازى Bourgeois sociology (المحافظ) بالنظرية الماركسية Marxist theory (الراديكالية) · غير أن هذه النظرة لم يعد أحد يتمسك بها بقوة · فقد تعمل الماركسية فى الوقت الحاضر على التأكيد على حالة معينة راهنة فى بعض المجتمعات ، ومن ثم تعوق النقد · وفى مكان آخر قد تبدو الماركسية ، على الأقل فى أشكالها الأكثر أرثوذكسية ، قد فقدت بعضا من قوتها الراديكالية ، لأنها لم تعد تؤكد على المشكلات والصراعات الرئيسية لهذا العصر · فبسبب تجاهلها لموضوعات محددة ، نجدها قد فقدت طبيعتها التحريرية(١) · وقد حاول الكتاب الذين لديهم شكوك فى الطبيعة الراديكالية للفكر الماركسى فى نهاية القرن العشرين كثيرا أن يحددوا الاتجاهات الراديكالية والمحافظة

---

(١) هناك تصوير جيد للتطور الحديث للافكار الراديكالية المضادة لماركسية الأحزاب الشيوعية فى فرنسا فى مؤلف ريتشارد جومبن Richard Gombin, **Les Origins du gauchisme** (Paris, 1971) وتحليل لاعمال بعض النقاد الامريكيين الكبار فيما يتعلق بالفكر الماركسى فى مؤلف بيتركليكاك Peter Clecak, **Radical Paradoxos** (New York, 1973, وفى حدود علمى ليس هناك تحليل مماثل للفكر الراديكالى فى المانيا ، وان كانت افكار مدرسة فرانكفورت Frankfurt School قد قدمت بوضوح فى مؤلف البرت ولمر Albert Wellmer

Critical theory of Society, New York, 1971.

بأساليب أخرى · على سبيل المثال عن طريق تأسيس فصل ، كذلك الذى أسسه س · رايت ميلز C. Wright Mills بين تمجيد المجتمع كما هو وبين نقده ، أو كما فعل الان تورين Alian Touraine بمقابلة « علم اجتماع صياغة السياسة الاجتماعية » « بعلم اجتماع الصراع »· وعموما تكمن المشكلة فى هذه الصياغات فى كونها أقل تحديدا فى تحليلها للمجتمع القائم ، أو القوى الاجتماعية الراديكالية التى تعمل فى اطاره ، وأهداف الحركة الراديكالية كما فعل ماركس فى تقريره عن المجتمع الرأسمالى ، ودور الطبقة العاملة ، وحلول الاشتراكية · غير أن عدم التحدد هذا قد لا يمكن تجنبه · لأنه قد يعكس الظروف الاجتماعية المضطربة فى الوقت الحاضر · وبعد كل ذلك ، فليست هناك قيمة كبيرة فى أن نمتلك اطارا نظريا محددا ينفصل تماما عن الحقيقية · وعلى أية حال ، فقد أصبح معنى نظرية ماركس الاجتماعية ، كما تطورت عبر عقود عديدة ، موضوعا للجدل والتفسيرات المتنوعة · اذ تؤسس كثير من الانتقادات الراديكالية للماركسية نقدها فى نطاق تصور محدد لغزى الفكر الماركسى · حيث يتحدد مدى التطور الاجتماعى ، ويفسر بواسطة نمو القوى المنتجة ، وأهمية الطبقة العاملة كوسيلة للتحول الاجتماعى · وذلك فى مواجهة تأثير ما يشخصه ماركس بتقدم (العقل العام) general intellect ، وهو عبارة عن النظم الضرورية الملائمة للمجتمع الاشتراكى ـ حيث طرحت كل هذه الموضوعات للمناقشة والتفسير(٢) ·

وليس هناك تأكيد بعدم التطابق وأفكار ماركس ، برغم وجود اختلاف واضح فى التأكيد حول صياغات تتعلق بالشروط الأساسية للاشتراكية كتلك التى قدمها ولمر Wellmer : حيث أصبح نقد وتغيير البناء الفوقى له أهمية جديدة وحاسمة بالنسبة لحركات التحرير ··· وقد يكون ضروريا أن يحتوى المجتمع الاشتراكى على الديموقراطية الاشتراكية ، والعدالة الاشتراكية ، والأخلاق الاشتراكية

---

(٢) ناقشت بعض هذه المسائل بصورة اكثر اكتمالا فى مقدمتى لمؤلف كارل ماركس Karl Marx (Englewood Cliffs, N. J. 1973)

أو (الوعى الاشتراكى) بين مكوناته التى ينبغى أن تنمو فى رحم المجتمع الرأسمالى(٣) ٠

فاذا تعرضت راديكالية الماركسية فى بعض أشكالها الرئيسية للشك ، فان ذلك قد حدث أيضا للنزعة المحافظة فى علم الاجتماع ٠ وفى هذه الحالة أيضا نجد تفسيرات متضادة لتطور التفكير الاجتماعى ٠ حيث وصف علم الاجتماع كثيرا (كعلم للأزمة الاجتماعية) بل أنه قد ظهر أصلا فى اطار الأزمة الاجتماعية والثقافية التى صاحبت انهيار النظام القديم ancien regime ونشأة الرأسمالية الصناعية ٠ بيد أنه يمكن النظر الى هذه الاستجابة العقلية بأسلوبين مختلفين ٠ اذ يمكن النظر الى علم الاجتماع من ناحية على أنه قد تكشف من خلال الفكر الاجتماعى النقدى لعصر التنوير ، ومن ثم فقد طرح شكلا راديكاليا قويا يتمثل فى فكر كارل ماركس ٠ وعلى النقيض فقد يدرك علم الاجتماع كرد فعل لعصر التنوير أسسه مفكرون محافظون فى بداية القرن التاسع عشر(٤) ٠ وقد أعجب كونت الى حد كبير بافكارهم واستوعبها فى بناء نسقه السوسيولوجى ٠

وحتى اذا وافقنا على أى من هذه التفسيرات فسيظل من غير الضرورى افتراض أن توجيه الفكر السوسيولوجى قد بقى ثابتا لم يتغير على مدى قرنين تقريبا ٠ فقد أكدت الانتقادات الراديكالية فى علم الاجتماع كثيرا بأن العصر الذهبى للفكر الاجتماعى ـ وهى الفترة التى بين ١٨٨٠ ، ١٩٢٠ حيث كتب خلالها ماكس فيبر ، دوركيم ، باريتو أعمالهم الأساسية ـ قد تميز بطابع رد الفعل المحافظ ضد الماركسية ٠ وليس هناك شك فى أن هؤلاء المفكرين قد اهتموا أساسا ، بقرائن مختلفة ، لنقد النظرية الماركسية(٥) ٠ ومن ثم فقد ساهموا بعناصر هامة فى بناء

---

(٣) Wellmer, Op. cit., pp. 121 - 2.

(٤) See especially the discussion in R. A. Nisbet, **The Sociological tradition** (New York, 1966), PP. 16 - 18.

(٥) H. Stuart Hughes, in his **Consciousness and Society**, New York, 1958) حيث يرى بحق ان نقد الماركسية يعتبر أحد العناصر التى شاركت فى اعادة توجيه الفكر الاوربى خلال هذه المرحلة ٠

النظرية المحافظة عن المجتمع • غير أن الحوار الذى شاركوا فيه مع الماركسية ساعد فى الحفاظ على ذيوع الفكر الماركسى فى علم الاجتماع • وفى بعض الأحيان (كما حدث فى حقب الثلاثينات والستينات من القرن التاسع عشر) اعتمد انبعاث الفكر الراديكالى على الأفكار الماركسية الى حد كبير •

ومع ذلك فهناك نقد أكثر عمقا للتوجيه المحافظ فى علم الاجتماع ، وهو النقد الذى ينكر كلية راديكالية فكر التنوير بالشكل الذى اتخذه فى علم الاجتماع • والذى يشكك فى عناصر النظرية الماركسية التى استمدت من نفس المصدر • حيث قدمت مدرسة فرانكفورت أساسا هذا النقد • وبخاصة ماكس هوركها يمر Max Horkheimer الذى يرى أن العقلانية العلمية للتنوير تتضمن تصورا للطبيعة كموضوع للسيطرة والتحكم البشرى ، وهو التصور الذى أدى بالضرورة الى نظرة معاملة للانسان ذاته ، وله فى علاقاته الاجتماعية المتبادلة ، كموضوع للسيطرة(٦) • وبسبب تأكيد نظرية ماركس بصفة خاصة على العمل كأسلوب بشرى لتحقيق الذات ـ وبصفة عامة بسبب موافقة ماركس الواضحة على نمو العلم والصناعة الحديثة ـ انتقده هوركهايمر باعتباره ينتمى الى فكر التنوير(٧) •

ومن وجهة النظر هذه اعتبرت المرحلة الأولى لنشأة علم الاجتماع ـ سواء كان التأكيد على الاسهامات العقلية للرومانتيكية المحافظة ، أو اسهامات مفكرى التنوير ـ كتأسيس لوجهة النظر المحافظة عن المجتمع ، وهى وجهة النظر التى تتناقض بطريقة أو بأخرى مع المذاهب التى تجعل التحرر الانسانى ممكنا • ويبدو أن مفكرى مدرسة فرانكفورت قد قالوا فى

---

(٦) Max Horkheimer, **Eclipse of Reason** (New York 1971); Theodor Adorono and Max Horkheimer, **Dialektik der Aufklärung** (Amsterdam, 1947).

(٧) عمقت الدراسات الاخيرة التى أجراها اعضاء مدرسة فرانكفورت هذا النقد ووسعته See Wellmer, Op. cit., Chapter 2, (الوضعية الكامنة فى فلسفة ماركس للتاريخ) (The Latent Positivism of Marx's Philosophyof history).

النهاية أن المجتمع البرجوازى ، كظاهرة ثقافية عامة ، يستطيع أن يقدم نظريات اجتماعية برجوازية محافظة · وحينما امتد هذا التفكير النقدى الى الفكر السوفيتى الذى نظر اليه باعتباره قد طور أساسا كل عناصر العقلانية العلمية فى النظرية الماركسية ، فان النتيجة المتشائمة التى نصل اليها تتمثل فى أن معظم أشكال التفكير الاجتماعى الواسعة الانتشار فى الحضارات الرئيسية الحديثة ، مالت كلها لدعم نسق السيطرة ، وأن قلة باقية من ممثلى العقل النقدى Critical reason هى فقط التى تناضل ضدها(٨) ·

وتلقى هذه المناقشات الضوء على جانب آخر من تطور الفكر السوسيولوجى وتوجيهه · فهناك من ناحية ترابط داخلى للأفكار ، حسب أسلوب تفسيرها ، يكشف عن ميل وجهة النظر السوسيولوجية المحددة لدعم أو رفض شكل قائم للحياة الاجتماعية · ومن ناحية أخرى استمد التفكير السوسيولوجى اهتمامه الرئيسى ، وعلى الأقل جزءا من الاطار العام لافتراضاته القبلية ، ومحكاته فى الحكم على ما هو صادق أو ذو دلالة ، من شكل المجتمع الذى نشأ فى اطاره · ومثلما لاحظ روبرت لند Robert Lynd سابقا ، فان علم الاجتماع لم يكن معرفة مدرسية مقصورة على فئة قليلة ، وانما كان جزءا منظما من الثقافة العامة يوجد لكى يساعد الانسان باستمرار على فهم ثقافته واعادة بنائها(٩) · وقد أكد لند Lynd على اعادة بناء الثقافة ، وأيد علما اجتماعيا أكثر راديكالية يستطيع أن يوضح طريق التحول الراديكالى للمجتمع الأمريكى فى فترة الكساد · غير أن علم الاجتماع كجزء من الثقافة لم يستطع أن يهرب بسهولة من تأثير ما هو مسيطر فى هذه الثقافة · وفى الفترات التى يسود فيها المجتمع ذاته جدل وصراع صريح ، فاننا نجد فى الحل الأول أن الفصل بين علم الاجتماع الراديكالى والمحافظ يتحدد بصورة حاسمة ،

---

(٨) انظر بصفة خاصة الفصل الاخير من مؤلف هربرت ماركيوز Herbert Marcuse, **One Dimensional Man** (New York, 1964).

(٩) Robert S. Lynd, **Knowledge for what?** (Princeton, 1939). P. IX.

وثانيا تصبح لعلم الاجتماع الراديكالى أهمية متزايدة فى مجال التفكير الاجتماعى بكامله ٠

والى الحد الذى لا تشكل فيه المجتمعات الحديثة كليات متناسقة ، حيث يوجد الصراع بين التجمعات الاجتماعية بداخلها ، فان بامكان علم الاجتمـــاع الراديكالى أن يتأسس ويستمر خلقه من جديد ٠ ويتجاهـل تصوير كل الفترة التالية لعصر التنوير كفترة برجوازية استطاع أن يزدهر فى اطارها التفكير الاجتماعى البرجوازى فقط ، أيا كانت مظاهره الكثيرة المختلفة ، مدى التناقضات فى المجتمعات الحديثة ، وهى التناقضات التى بالاستناد اليها نشأت الماركسية ذاتها ٠ حقيقة أدى الانهيار الواضـح لهذه القوى المتضادة ، وبخاصة كما اتضحت بين الطبقات الواضـــحة التحديد ، الى تصورات جديدة بشأن المجتمع الحديث (كمجتمع صناعى) أو مجتمع علمى ـ تكنولوجى ٠ غير أننا نلاحظ أن فكرة التهدئة العامة ـ Pacification ـ للحيـاة الاجتماعيـة ، وظهـور الاجمـاع Consensus فى اطار ظروف الديموقراطية والوفرة ، لم تصمد أمام الفوران الراديكالى لحقبة الستينات ٠

وحينئذ ، قد يكون خطأ فى رأيى أن نعطى أهمية كبيرة لهذا الجانب، وأن نقدم الفكر الاجتماعى كمجرد انعكاس لتوازن المصالح الاجتماعية بشكل محدد ٠ ففى اطار نسق محدد للعلاقات الاجتماعية والمعايير الثقافية يظل هناك نطاق يمكن أن يتحقق فى اطاره تطور عقلى مستقل نسبيا لعلم الاجتماع ٠ واذا كان الأمر على هذا النحو ، فاننا قد نتساءل عن طبيعة اتجاه هذا التطور أو ما يحتمل أن يكون عليه ، سواء كان يدعم شـــكل الحيـاة القائم أو يطرحه للمناقشة ٠ ويبـدو لى أن هناك خاصيتين فى التفكير الاجتماعى تبرران الحديث عن توجيه راديكالى أصيل ٠ اذ يمكن أن أوكد أولا على النظرة النقدية للعلم بدلا من فكرة الســيطرة على الطبيعة واتساعها الى الممارسة الاجتماعية حيث السيطرة على البشر ، باعتبارها الدعوى الأساسية لعصر التنوير فى التفكير السوسيولوجى ٠ فمن أهم الخصائص الوضعية والراديكالية فى علم الاجتماع أنه يتضمن نقدا مستمرا لكل النظريات الموجودة عن المجتمع ، بما فيها تلك التصورات

اليومية للعالم الاجتماعى، التى تشكل الحياة العملية · وفى الوقت الحاضر يهيىء الاضطراب العام المتعلق بالنتائج الاجتماعية للعلم والتكنولوجيا المتقدمة قدرا من التشجيع والتبرير لانتقاد العقلانية العلمية ، غير أنه لا أعتقد أن قضية التحرر الانسانى سوف تدعم كثيرا بالتخلى عن ذلك للصوفية الدينية التى يزداد نموها بين مناصرى الثقافة المضادة غير العلمية ·

وتتعلق الخاصية الثانية لعلم الاجتماع والتى أود توجيه الانتباه اليها بنتائجه الاجتماعية وأسلوب ادراكها داخل التفكير السوسيولوجى · فاذا قيل أن هدف علم الاجتماع هو الكشف عن المكانيزم المسير للحياة الاجتماعية والذى يتم تبادله فى تدريب صفوة صغيرة من « المنظمين الاجتماعيين » ، فان ذلك يستلزم انتاج ومضاعفة انتاج شكل للسيطرة · غير أنه اذا كان الهدف هو انتشار نوع من الفهم فى المجتمع يتعلق بأسلوب تأسيس العلاقات الاجتماعية ، والحفاظ على بقائها وامكانية تغييرها ـ كنوع من التثقيف العام ـ فان نتائجه يمكن أن تبدو ذات طبيعة تحريرية ·

وسوف تناقش المقالات التالية بعمق أكثر ومن منظورات عديدة ، الموضوعات التى أثارتها هنا ، والتى أختبرت ورتبت وفقا لوجهة نظرى حول الاهتمامات الرئيسية لعلم الاجتماع الراديكالى ، أعنى نقد النظريات الاجتماعية بالنظر الى رؤيتها للعالم الاجتماعى الى جانب بحث التوترات والتفاوتات المتضمنة فى بناء الطبقات والصفوات ، والتى تعوق نمو الحرية الانسانية ؛ بالاضافةالى فحص طبيعة ومنطلقاتالحركات الاجتماعية التى تتولى تفنيد المجتمع القائم · وبهذا المعنى يتضمن علم الاجتماع الراديكالى ثلاثة عناصر : نظرية وامبيريقية ، وفى نفس الوقت سياسية ·